نوافذ الجزائر DZ

ملحق ثقافي أسبوعي

حماية التراث حفاظ على الذات

الخميس 22 جانفي 2026 الموافق لـ 03 شعبان 1447العدد 3185/ العدد: 03

الزليج الجزائري..

ذاكرة خزفية من قلعة بني حماد إلى اليونيسكو

أدب و تأليف

أحاسيس

الجزء الأول

خذلان وسرطان..

خزف المينا.. حين يتحول الزليج الجزائري إلى خطاب بصري خالد

العربي بوزيان

كتاب «الملك الوحيد» جمال بلماضي مدربا وإنسانا تحت المجهر

سيادة ثقافية وإثبات للهوية..

الزليج الجزائري.. معركة الذاكرة في مواجهة السطو الثقافي

جريدة بولا فاعل إعلامي و ثقافي مهم..

كما تحمل هذه المشاركة دلالة خاصة، كونها تأتي برعاية جريدة بولا الرياضية، في خطوة تعكس وعي المؤسسة الإعلامية بدورها الثقافي، وإيمانها بضرورة دعم المبادرات الإبداعية لمحرريها، وتكريس صورة الصحفي الرياضي كفاعل ثقافي قادر على الإنتاج خارج حدود الملاعب والنتائج.

إعـــــلان:

لمن يريد أن تنشر أعماله على هذه الصفحة، قصة قصيرة أو شعر، أو له مؤلف يريد التعريف به، يرجى ارسال العمل على الإيمايل التالي: algerienpatrimoine@gmail.com

إعداد: مصطفى خليفاوي

ذاكرة خزفية من قلعة بني حماد إلى اليونيسكو

تزخر الجزائر، عبر امتدادها الجغرافي وتنوعها الحضاري، بتراث معماري غنيّ يختزل قرونًا من التفاعل الثقافي والفني، ويُعد الزليج أحد أبرز تجلياته وأكثرها قدرة على البقاء كشاهد حيّ على عبقرية الحِرفي الجزائري. ففي القصور العتيقة، والمساجد التاريخية، والمباني الرسمية القديمة، وحتى في بعض البيوت التقليدية، لا يزال بلاط الزليج يحفظ أثر الأزمنة المتعاقبة، ويكشف عمق العلاقة التي نسجتها الجزائر مع محيطها الإسلامي والمتوسطي، خاصة خلال العهد العثماني وما قبله. ورغم محاولات الطمس، والسطو الثقافي، وتغييب الأصول، ظل الزليج الجزائري محتفظًا بخصوصيته الجمالية وفرادته الفنية، كأنه صكّ أمان تاريخي يثبت في كل مرة أصالته وانتماءه. فكل قطعة خزفية، وكل لون، وكل شكل هندسي، ليس مجرد عنصر زخرفي، بل لغة بصرية كاملة، تحكي عن تفاعل الفن مع العقيدة، والهندسة مع الروح، والوظيفة مع الجمال. وفي هذا السياق، كانت وزارة الثقافة والفنون قد أعلنت، خلال الأشهر الماضية، عن شروع الجزائر في إعداد ملف متكامل حول فن الزخرفة المعمارية – الزليج، تمهيدًا لإيداعه لدى منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلم «اليونيسكو»، بغرض إدراجه ضمن القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية، في خطوة تهدف إلى تثبيت المرجعية التاريخية لهذا الفن وحمايته من التلاشي أو التزييف.

المعاضيد.. حيث وُلد الزليج الجزائري

يرى الباحث في الآثار الإسلامية، محمد الطيب عقاب، أن الحديث عن الزليج لا يمكن فصله عن الجذور الأولى للحضارة الإسلامية في الجزائر، حيث تعود البدايات الحقيقية لهذا الفن إلى القرن الحادي عشر الميلادي، وبالتحديد إلى قلعة بني حماد بولاية المسيلة، التي شكّلت آنذاك مركزًا حضاريًا وعمرانيًا بالغ الأهمية. ويشير الباحث إلى أن منطقة المعاضيد، الواقعة ضمن المجال الجغرافي لقلعة بني حماد، تمثل المهد الأول لظهور الخزفيات ذات الطلاء المعدني، وهي نماذج نادرة ارتبطت بالحضارة الحمادية، وميّزتها عن باقي التجارب المعاصرة في العالم الإسلامي. هذه الخزفيات، التي عُثر على بقاياها في أحواض القلعة ومحيطها، تعدّ أقدم الشواهد المادية على تطور فن الزليج في الجزائر. أما من حيث التسمية، فيُرجع عقاب أصل كلمة «الزليج» إلى حرفي فخاري أندلسي يُدعى بلقاسم زليجي، هاجر إلى تونس خلال القرن السادس عشر، واستقر بمدينة نابل المشهورة بصناعة الخزف، قبل أن تنتقل التسمية وتترسخ في المغرب الأوسط والمغرب العربي عمومًا، دون أن يلغي ذلك الأسبقية الجزائرية في الممارسة الفعلية لهذا الفن.

هندسة الجمال ووظيفة الزخرفة

ويُطلق مصطلح الزليج على تلك القطع الخزفية متعددة الأشكال والألوان، التي تُصنع وفق مقاييس دقيقة، ثم تُجمع بعناية متناهية لتشكّل لوحات زخرفية متكاملة. وتُوظف هذه اللوحات أساسًا في تبليط الأرضيات، وكسوة الأجزاء السفلية للجدران، وأحيانًا الأعمدة والعقود، بل وحتى عتبات الأبواب وبدايات السلالم في بعض المنشآت الخاصة. ويعتمد الزليج الجزائري، في جوهره، على الأشكال الهندسية، التي تعكس فلسفة الفن الإسلامي القائمة على التماثل والتناظر واللانهائية البصرية. ويُعد «المربع المنجّم» من أكثر الأشكال حضورًا، حيث تُستعمل النماذج البسيطة لتبليط الأرضيات، في حين تُخصّص الأشكال المركّبة والمعقّدة لكسوة الجدران. أما الزخارف النباتية، فهي أقل انتشارًا، وغالبًا ما تُوظّف في محيط النوافير وأحواض المياه.

المقرمصات.. البداية الأولى

ويؤكد عقاب أن من أقدم أشكال الزليج الجزائري ما يُعرف بـ«المقرمصات»، وهي قطع خزفية مصبوغة بطلاء معدني أخضر في جزئها الظاهر، بينما يظل الجزء المغروس في الجدار على حالته الطبيعية من الفخار. ويتكون هذا الطلاء من معادن متعددة، أبرزها النحاس، الذي يمنح اللون الأخضر الزرعي الداكن، وهو لون ارتبط بالبدايات الأولى لفن الزليج في الجزائر.

تنوع حمادي يكشف عبقرية الصناعة

وتكشف المساحات الواسعة لقصور الدولة الحمادية عن ثراء استثنائي في نماذج الزليج، من بينها المربعات الخزفية المطلية بالأزرق الكوبالتي الفاتح، والنجيمات المتعددة التي زيّنت جدران الغرف في قصور المنار وقصر البحر. ويعكس هذا التنوع، حسب الباحث، مستوى متقدمًا من الإبداع الحرفي، سواء في كسوة الجدران السفلية، أو في الربط بين السقف والعلو، أو في تبليط الأرضيات. كما عُثر في هذه القصور على قناني وبلاسم علاجية مطلية بالبريق المعدني الذهبي، وهي من أرقى الخزفيات في تلك الفترة، وتدل على تطور كيمياء الألوان وقدرة الحرفي الجزائري على التحكم في المواد والمعادن.

من تلمسان إلى قسنطينة.. مدن تصنع المجد الخزفي

يمتد حضور الزليج الجزائري إلى مدن كبرى مثل تلمسان، مستغانم، وقسنطينة، حيث بلغ هذا الفن مستويات عالية من الإتقان. ففي عاصمة الزيانيين، تطورت صناعة الزليج واحتفظت بروح الحضارة الإسلامية، كما تجلّى ذلك في المدرسة التشفينية، التي مثّلت نموذجًا راقيًا للعمارة المزخرفة قبل أن تطالها يد الاستعمار. ويشير عقاب إلى أن غياب الزليج عن بعض الفترات، مثل العهد المرابطي، لا ينفي استمراريته، بل يعكس تحولات سياسية وثقافية أثّرت على أنماط البناء والزخرفة.

الزليج.. وثيقة حضارية لا تكذب

لا يرى الباحث اختلافات إقليمية جوهرية في تقنيات صناعة الزليج الجزائري، باعتباره جزءًا من منظومة الفن الإسلامي الكبرى، التي تقوم على اللفائف الدائرية، والخطوط المنحنية، والعناصر النباتية. غير أن العهد العثماني شهد تحولات واضحة، مع دخول مربعات خزفية مستوردة من إسبانيا وجنوب إيطاليا، في دلالة على قوة الأسطول البحري الجزائري واتساع علاقاته التجارية. ويظل الزليج، في نظر عقاب، وثيقة حية تشهد على تعدد علاقات الجزائر مع محيطها الإسلامي والأوروبي، وتكشف في تفاصيلها الصغيرة تاريخًا من التبادل والتأثير المتبادل.

حين يتكلم الحرفي.. الزليج اليوم

من جانبه، يعتبر المختص في فن الزخرفة الإسلامية، أحمد بوعانم، أن الزليج الجزائري ليس مجرد بقايا ماضٍ، بل فن حيّ يعكس ثراء الثقافة الجزائرية وعمقها التاريخي. ويؤكد أن هذا الفن شهد في السنوات الأخيرة عودة قوية، مع تزايد الطلب على استخدامه في البيوت والفضاءات الخاصة. ويشرح بوعانم أن الزليج مادة خزفية تمر بعدة مراحل دقيقة، تبدأ من استخراج الطين، مرورًا بالعجن والتجفيف والحرق، وصولًا إلى الصبغ والتقطيع، في عملية تتطلب صبرًا وخبرة عالية.

ألوان تحكي التاريخ

يولي الحرفي أهمية خاصة لدلالات الألوان، خاصة في الزليج التلمساني، حيث يرمز الأزرق إلى السماء والبحر ورايات بني زيان، والأبيض إلى السلام، والبني إلى أسوار تلمسان، فيما يعكس الأسود رمزية الليل والنجوم. ويؤكد بوعانم أن إحياء حرفة الزليج لا يقتصر على البعد الجمالي، بل يمتد إلى الحفاظ على الذاكرة، ودعم الاقتصاد المحلي، وخلق فرص عمل، داعيًا إلى تكثيف المعارض والتكوينات لحماية هذا التراث من الاندثار.

سيادة ثقافية وإثبات للهوية.. الزليج الجزائري.. معركة الذاكرة في مواجهة السطو الثقافي

لم يعد التراث الثقافي في العصر الحديث مجرد موروث جمالي أو فني تتغنى به الشعوب، بل تحوّل إلى مجال صراع ناعم، تتقاطع فيه السياسة بالهوية، وتتنازع حوله السرديات التاريخية، خاصة في الفضاءات الحضارية المشتركة. وفي هذا السياق، يجد الزليج الجزائري نفسه اليوم في قلب معركة رمزية حقيقية، عنوانها الدفاع عن الذاكرة الوطنية، وحماية أحد أقدم الفنون المعمارية في شمال إفريقيا من محاولات النسب والاختزال والتوظيف الخارجي. لقد أصبحت الجزائر، بما تمتلكه من عمق تاريخي وحضاري موثّق، هدفًا لمحاولات متكررة لإعادة تأويل تراثها، أو القفز على منجزاتها الحضارية، عبر تقديم عناصر ثقافية جزائرية خالصة في صيغ منزوعة السياق، تُروّج خارج إطارها الجغرافي والتاريخي الحقيقي. والزليج، باعتباره فنًا خزفيًا مركزيًا في العمارة الإسلامية بالجزائر، ليس استثناءً من هذا الاستهداف.

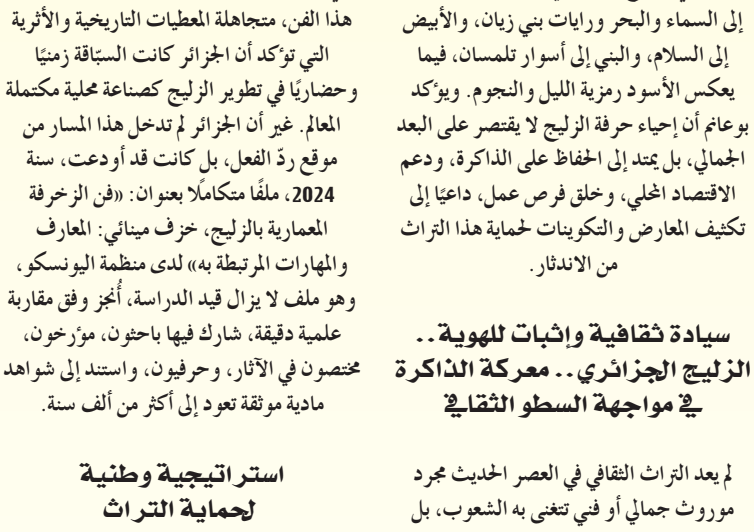

محاولة استباق.. والجزائر ترد بالوثيقة

في خطوة لم تكن مفاجئة للمتابعين، أعلنت جهة مجاورة في الضفة الغربية لشمال إفريقيا عن إيداع ملف لتصنيف «الزليج» ضمن القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي لدى منظمة اليونسكو، في محاولة واضحة لفرض سردية أحادية حول هذا الفن، متجاهلة المعطيات التاريخية والأثرية التي تؤكد أن الجزائر كانت السبّاقة زمنيًا وحضاريًا في تطوير الزليج كصناعة محلية مكتملة المعالم. غير أن الجزائر لم تدخل هذا المسار من موقع ردّ الفعل، بل كانت قد أودعت، سنة 2024، ملفًا متكاملًا بعنوان: «فن الزخرفة المعمارية بالزليج، خزف مينائي: المعارف والمهارات المرتبطة به» لدى منظمة اليونسكو، وهو ملف لا يزال قيد الدراسة، أُنجز وفق مقاربة علمية دقيقة، شارك فيها باحثون، مؤرخون، مختصون في الآثار، وحرفيون، واستند إلى شواهد مادية موثقة تعود إلى أكثر من ألف سنة.

استراتيجية وطنية لحماية التراث

ويأتي هذا المسعى ضمن سياسة ثقافية واضحة انتهجتها الجزائر خلال السنوات الأخيرة، تقوم على بناء بنك معطيات وطني للتراث الثقافي المادي وغير المادي، وتسخير الإمكانات البشرية والعلمية والمنهجية لتثبيت المرجعية الجزائرية لعناصرها الحضارية في المحافل الدولية. وقد تُوّج هذا الجهد بتسجيل عدة عناصر لدى منظمة اليونسكو، من بينها ملف الزي الاحتفالي النسوي للشرق الجزائري الكبير، الذي شمل القفطان القاضي، والقندورة، والملحفة، والحايك، إلى جانب تقنيات التطريز التقليدية مثل المجبود، الفتلة، الكنتيل، التل، الترصيع، والتعمار. كما شمل الملف الحلي الفضية والذهبية، بأسمائها المحلية الدقيقة، في سابقة مهمة تحمي المصطلح كما تحمي القطعة. ولا تزال الجزائر تعمل على ملفات أخرى ذات رمزية قوية، على غرار البرنوس الجزائري، الحايك، الحوزي، وغيرها من العناصر التي طالها في فترات سابقة التباس أو محاولات طمس.

الزليج.. شهادة ميلاد جزائرية موثقة

في هذا السياق، يؤكد البروفيسور والباحث في التراث عبد القادر دحدوح أن الزليج ظهر لأول مرة في الجزائر كصناعة محلية متكاملة خلال العهد الحمادي، وتحديدًا في قلعة بني حماد، التي شُيّدت سنة 398هـ / 1008م على يد حماد بن بلكين، وتُعد اليوم من أهم مواقع التراث العالمي. ويشير دحدوح إلى أن أقدم بقايا الزليج المكتشفة وُجدت في: مئذنة جامع القلعة، قصر المنار، وعدد من المعالم المعمارية الأخرى داخل القلعة، وهي نماذج محفوظة اليوم في المتحف الوطني للآثار القديمة والفنون الإسلامية بالجزائر العاصمة، والمتحف الوطني بسطيف، والمتحف الوطني سيرتا بقسنطينة، إضافة إلى متحف قلعة بني حماد، وتشكل كلها أدلة مادية لا تقبل الجدل.

من التأثير إلى الانتشار.. لا العكس

ويُوضّح الباحث أن وجود قطع خزفية مزججة في معالم دينية خارج الجزائر خلال فترات مبكرة، لا ينفي أبدًا أسبقية الزليج الجزائري، بل يؤكد مسار الانتقال الثقافي الطبيعي داخل العالم الإسلامي. فبينما استُوردت بعض القطع المزججة إلى جامع القيروان من المشرق خلال العصر العباسي، فإن ما يميّز قلعة بني حماد هو بروز صناعة محلية للزليج، بتقنيات وألوان وأشكال مستقلة. ومن هذه القاعدة الجزائرية، انتقل الزليج لاحقًا إلى مناطق أخرى من الغرب الإسلامي، خاصة مع قيام الدولة الموحدية، التي ورثت الدولة الحمادية سياسيًا وثقافيًا. ومن المعروف تاريخيًا أن مؤسس الدولة الموحدية، عبد المؤمن بن علي، ينحدر من منطقة هنين الجزائرية، وكان مطلعًا على العمارة الحمادية في القلعة وبجاية، وهو ما يفسّر انتقال الأنماط الفنية الجزائرية نحو الغرب، لا العكس.

انتشار طبيعي لا يلغي الأصل

ومع توسّع الدول الإسلامية في المنطقة، خاصة خلال العهود الزيانية، الحفصية، ثم العثمانية، انتشر فن الزليج في القصور والمساجد والزوايا والحمامات، وتطوّر شكليًا، لكنه ظل محافظًا على بصمته الهندسية الإسلامية القائمة على التماثل والتناظر والتجريد. غير أن الانتشار الجغرافي لا يعني أبدًا ملكية حصرية، ولا يبرر اختزال الأصل أو مصادرته، وهو ما تؤكد عليه الباحثة في الآثار البروفيسورة عائشة حنفي، التي شددت على أن لكل بلد خصوصياته الحرفية، لكن لا يمكن إنكار أن الزليج وُلد في الجزائر، وبالتحديد في قلعة بني حماد، ثم تطور في تلمسان والعاصمة، ولا يزال شاهدًا على عراقة هذا الفن.

حماية الزليج.. حماية للسيادة الثقافية

إن الدفاع عن الزليج الجزائري ليس مجرد نقاش فني أو أكاديمي، بل هو دفاع عن السيادة الثقافية، وعن حق الشعوب في رواية تاريخها بأصواتها، استنادًا إلى الوثيقة، لا إلى الترويج. وفي زمن تتكاثر فيه محاولات السطو الرمزي، تبدو معركة الجزائر اليوم معركة وعي، أساسها الأرشيف، والبحث، والتوثيق، وحضور قوي في المنظمات الدولية، حتى يبقى الزليج الجزائري كما كان دائمًا: فنًا مولودًا من طين هذه الأرض، ومشبعًا بروحها، وناطقًا بتاريخها.

خزف المينا.. حين يتحول الزليج الجزائري إلى خطاب بصري خالد

لم يكن خزف المينا في التجربة الجزائرية مجرد إضافة تقنية على سطح القطعة الخزفية، بل شكّل، عبر الزمن، تحوّلًا نوعيًا في لغة الزخرفة، نقل الزليج من وظيفة التزيين المعماري البحت إلى أفق أوسع، حيث تتقاطع الحرفة بالفن التشكيلي، والذاكرة بالجمال، والتقنية بالإبداع الحر. فبفضل هذا التزجيج الزجاجي الشفاف، اكتسبت القطع الفسيفسائية بعدًا بصريًا جديدًا، جعلها أكثر قدرة على مقاومة الزمن، وأكثر قابلية لاحتضان الألوان والرموز والدلالات. لقد سمح خزف المينا للفنان الجزائري بتوسيع مساحته التعبيرية، والانفتاح على تشكيلات لم تكن مألوفة في الزليج التقليدي، دون أن يفقد هذا الأخير روحه الأصيلة. فأصبحت اللوحات المزججة تحتضن تراكيب هندسية معقّدة، وزخارف نباتية متداخلة، وأحيانًا مشاهد رمزية مستوحاة من البيئة المحلية، في تناغم يزاوج بين الصرامة الهندسية والليونة الجمالية.

المعرض.. بوابة عبور بين الأزمنة

لا يمكن الحديث عن خزف المينا دون التوقف عند الدور الذي تلعبه المعارض الفنية في إعادة قراءة هذا الفن، ومنح المتلقي فرصة العبور عبر الزمن. فالدخول إلى معارض لوحات السيراميك بقصر الباي في قسنطينة، على سبيل المثال، ليس مجرد زيارة ثقافية، بل رحلة بصرية تستحضر قرونًا من التراكم الفني، حيث تتجاور الأعمال التراثية مع التجارب الحديثة، في حوار صامت بين الماضي والحاضر. وتكشف هذه المعارض عن تنوع بصري لافت، يعكس الخصوصيات الجهوية دون الحاجة إلى تسميات مباشرة. فالألوان، وحدها، تتكفل بسرد الحكاية؛ إذ تطغى التدرجات الفاتحة واللمسات الفضية في بعض الأعمال، بينما تميل أخرى إلى دفء الألوان المشبعة، في إحالة ذكية إلى اختلاف المناخات والبيئات والمواد الطبيعية التي ألهمت الفنانين عبر العصور.

الزهرة كرمز.. حين تتكلم الطبيعة لغة الزليج

في أعمال خزف المينا، لا تحضر الزهرة بوصفها عنصرًا زخرفيًا فحسب، بل كرمز بصري محمّل بالدلالات. فالنرجس، القرنفلة، والتوليب، ليست مجرد أشكال جمالية، وإنما مفردات من قاموس بصري متوارث، يعكس علاقة الإنسان الجزائري بالطبيعة، وبالمكان، وبالذاكرة الجمعية. ويؤكد فنانون معاصرون أن استلهام هذه العناصر لا يتم من فراغ، بل من ملاحظة دقيقة لقطع زليج ما تزال تزيّن بيوتًا عتيقة، وفضاءات تاريخية، وجدرانًا احتفظت ببرودة الحجر ودفء اللون. ومن هنا، فإن لوحة خزف مينا بقياس صغير نسبيًا، قادرة على فتح أفق واسع للتأمل، يجعل المتلقي يغوص في عمق الفن الإسلامي، دون حاجة إلى شروح لفظية.

الزليج كذاكرة بصرية

يرى فنانون مختصون أن الأعمال الفسيفسائية المزججة لا تُقرأ قراءة سطحية، بل تتطلب زمنًا بصريًا، حيث تتكشف رموزها تدريجيًا. فكل لوحة هي ذاكرة مضغوطة، تحمل في طياتها إشارات إلى حضارات تعاقبت، وتأثيرات ثقافية تداخلت، وبصمات محلية حافظت على حضورها رغم التحولات. وتحضر بعض الرموز المتكررة، مثل مشاهد الصيد، والمزهريات، والعناصر النباتية المتناظرة، بوصفها شواهد على استمرارية الذوق الفني، وعلى قدرة الزليج الجزائري على استيعاب التحول دون القطيعة مع الأصل.

من الجدار إلى اللوحة.. تحرر الزليج من الوظيفة

من أبرز التحولات التي عرفها خزف المينا، خروجه من حيز التوظيف المعماري الصرف، إلى فضاء اللوحة المستقلة. فقد أصبح الزليج يُنجز اليوم كعمل فني قائم بذاته، يُعلّق، يُعرض، ويُقتنى، شأنه شأن اللوحات التشكيلية. هذا التحول لم يُلغِ البعد الوظيفي للزليج، لكنه أضاف إليه بعدًا تعبيريًا، جعل الفنان أكثر جرأة في اختيار المواضيع، وأكثر تحررًا في التعامل مع اللون والسطح والفراغ. وهنا، يلعب التزجيج دورًا محوريًا في تثبيت الألوان، ومنح العمل بريقًا خاصًا، دون المساس ببنيته الحرفية.

الفضاء.. عنصر مكمل للعمل الفني

لا يكتمل حضور خزف المينا دون فضاء يحتضنه. فاختيار المكان الذي تُعرض فيه الأعمال ليس تفصيلًا ثانويًا، بل جزء من التجربة الجمالية. وتُعد الفضاءات التاريخية، بما تحمله من رمزية، حاضنة مثالية لهذا الفن، حيث تتكامل الجدران المزخرفة مع اللوحات المعروضة، في انسجام يربط الأصل بالامتداد. ويُجمع الفنانون على أن عرض الأعمال داخل معالم تاريخية يساهم في تهذيب الذائقة العامة، ويعيد الاعتبار للزليج كفن حيّ، لا كعنصر متحفي جامد.

بين الحرفة والتكنولوجيا.. صراع أم تكامل؟

في زمن تسارعت فيه تقنيات الطباعة والنقل الحراري، يواجه خزف المينا تحديًا جديدًا، يتمثل في المنتجات الصناعية التي تحاكي الزخارف التقليدية بدقة ظاهرية. غير أن هذا التحدي، في نظر المختصين، لا يهدد جوهر الزليج، بل يسلّط الضوء على قيمته. فالفرق بين القطعة المصنوعة يدويًا، وتلك المنتجة صناعيًا، لا يكمن فقط في الشكل، بل في الروح. فالأولى تحمل أثر اليد، والخبرة، والقرار الفني، وتقاوم الزمن والعوامل الطبيعية، بينما تبقى الثانية مجرّد نسخة، جميلة في ظاهرها، محدودة في عمرها ودلالتها.

أحاسيس

مجموعة قصصية من الواقع - تأليف: سعاد أحمد

خـــذلان وســـرطان..

الجزء الأول

الجو بارد.. تخللته زخات مطر تتساقط بين الفينة و الأخرى. كان يجب عليها أن تستقل سيارة أجرة لكي تتجنب الاكتظاظ الحاصل في الحافلات.. خرجت من العمل و قد انتهى الدوام.. لم تقف كثيرا على باب المكتب لتتحدث مع زملائها كالعادة، اكتفت بـ «مع السلامة» مع إشارة خفيفة من يدها. لم تكن معجبة جدا بهذا الجو فهو بالنسبة لها لا يمت أبدا بصلة للرومانسية خاصة وسط الزحام و الاندفاع الحاصل في أوقات الذروة أين يعد إيجاد مكان شاغر في حافلة أو سيارة أجرة متاحة من المعجزات..

في تلك اللحظة كأن العالم كله خرج في نفس الوقت يبحث عن وسيلة نقل.. صراخ هنا وهناك على ناصية الطريق، اندفاع و شجار عند باب حافلة لم تستطع حتى التوقف من شدة الازدحام و زامور السيارات وقد زاد الأجواء توترا..

«ربي ساعدني لأجد طاكسي..» هذا ما دعت به وكانت دعوتها مستجابة في حينها، أبواب السماء كانت مفتوحة ربما مع المطر الذي زاد غزارة.. فجأة توقفت سيارة أجرة عند قدميها، نزل رجل منها يريد دفع الأجرة للسائق وحتى قبل أن يضع رجله على الأرض كانت قد ركبت السيارة و قالت بنفس السرعة: «محطة المسافرين من فضلك».

لم يقل السائق شيئا بل أومأ برأسه مشيرا إليها بالموافقة.. كانت سعيدة جدا و هي ترى جموعا من الناس تجري نحوه و كل واحد فيهم يهتف بالمكان الذي يريد الذهاب إليه لعل و عسى أن يوافق الاتجاه الذي تريده الفتاة و لكن هيهات هيهات، عليهم أن يصبروا تحت تلك الأمطار و يقاوموا البرد الذي ازداد قساوة لحين العثور على مكان في أي وسيلة نقل كانت.. أحست حينها كأنما نالت المرتبة الأولى في مسابقة ما أو كأنما اجتمعت حظوظ الدنيا جميعا بين يديها..

وبينما كانت تحاول مجاراة هرمون السعادة المرتفع خاصة مع

الأجواء الدافئة داخل السيارة، وقد رسمت ابتسامة لا تكاد ترى وهي ترمق المارة عبر نافذتها، وقد اجتاحها إحساس النصر العظيم، شعرت بوخزة برد طفيفة في المكان، التفتت و اذا بالسائق قد توقف و فتح النافذة يريد الرد على امرأة مبللة بالكامل كانت تقف على جانب من الطريق و قد أشارت إليه: «محطة المسافرين!»، قالت ذلك بصوت مرتجف.. لم يبدو للفتاة أن ذلك فيه من الريبة بما أنها مبللة بالكامل والجو يزداد برودة مع التهاطل المستمر للأمطار. قال لها السائق: «نعم اركبي..»

فتحت الباب ويداها هي الأخرى ترتجف.. جلست بجانب الفتاة، لم يكن جلوسا عاديا و كأنما رمت بثقلها مع تنهيدة مبطنة لا تكاد تخرج من صدرها. في لحظة ما التصق كتف المرأة بكتف الفتاة.. رجفة غير عادية انسابت بهدوء من جسد مبلل بالكامل إلى جسد كالقط لا يبحث إلا عن الدفئ.. لكنها لم تكن رجفة برد.. هناك أمر آخر حتما..

انطلق السائق متجها نحو محطة المسافرين، عادت الفتاة تنظر عبر النافذة، الرؤية تكاد تكون منعدمة بسبب الأمطار.. أحست بذبذبات خفية أرسلها جسم المرأة التي تجلس بجانبها، الكتف كان ناقلا جيدا لأحاسيس لم تكن مفهومة للفتاة للوهلة الأولى، ارتجاف ثم تنهيدة ثم ماذا.. نظرت نحوها و ركزت جيدا هذه المرة في وجهها.. «ما بها هذه المرأة؟» قالت ذلك بينها و بين نفسها حتى رأتها تبكي.. كانت مطأطأة رأسها و دموعها تنساب ساخنة على وجنتيها.. تعجبت الفتاة و كان لا بد لها أن تسألها هذه المرة فلا داعي بعد الآن للعب دور اللامبالاة..

«ما بك؟؟ لما تبكين؟؟ هل أزعجك شيئ؟؟» انتبه السائق فجأة لأسئلة الفتاة و أخذ يرمق المرأة من المرآة و ينتظر دون وعي منه إجابة السيدة التي أثارت فضوله هو الآخر..

يتبع..

العربي بوزيان

كتاب «الملك الوحيد» جمال بلماضي مدربا وإنسانا تحت المجهر

العربي بوزيان كاتب جزائري وناشط جمعوي، صدرت له خمسة مؤلفات بين الرواية والقصة والمقالة، شارك في تظاهرات ثقافية محلية وطنية ودولية منها صالون الجزائر الدولي للكتاب من 2019 إلى 2025. أولى أعماله الأدبية رواية تحت عنوان «في قلبي أنثى أمازيغية» تناولت مواضيع اجتماعية مختلفة، ثم مجموعة قصصية تحت عنوان «الخمار الأسود» جمعت بين قصص الحب، الخيانة، الموت، وقصص من التراث، ورواية ثانية جاءت تحت عنوان «الماضي يعود غدا» وهي من النصوص الاجتماعية أيضا، ثم مجموعة قصصية تحت عنوان «نزيف الذاكرة». آخر أعماله منجز رياضي تحت عنوان «الملك الوحيد» / جمال بلماضي مدربا وإنسانا. حيث كَثيرا مَا وُصفت الذَاكرة الكُروية بأنّها قصيرة المدى، رُغم مقدرة كرة القدم على صناعة بهجة شعوب وأمم! في هذا العمل «الملك الوحيد « استعادة لمسار مدرب المنتخب الوطني الجزائري السابق «جمال بلماضي» الذي كان له أثر في تاريخ الكرة الجزائرية من خلال منجزات وحضور ألهمت ملايين الأنصار طيلة سنوات. في هذا المنجز وقف «العربي بوزيان» على مواقف حياتية ومهنية وتفاصيل أخرى تتعلق بالفريق الوطني من تتويج الخضر بكأس إفريقيا 2019 إلى الإقصاء من المشاركة في كأس العالم 2022 والإقصاء من كأس إفريقيا 2021 و 2023 والأحداث التي رافقت محاربي الصحراء في تلك الفترة، مع الظلم التحكيمي الذي تعرض له المنتخب الجزائري، هو منجز رياضي سيضيف للمكتبة الكروية الكثير في سياق يقل فيه هذا النوع من الكتابات.